الجزائر في الشعر العربي المعاصر
عزالدين المناصرة أنموذجا

محمد الصالح خرفي❖جامعة محمد الصديق بن يحي. جيجل

❖❖❖❖❖

ملخص
يعالج هذا المقال ثيمة الجزائر كفضاء جغرافي في النص الشعري العربي المعاصر، من خلال تجربة شاعر عربي كبير له بصمته الخاصة على المتن الشعري والعربي وهو الشاعر عزالدين المناصرة وذلك من خلال ديوانه حيزية

Abstract
This article deals with the subject matter of Algeria as a geographical setting in contemporary Arabic poetry. The focus of the present paper is on Az-eddine El-ménasra's collected poems *Haizia*.

❖❖❖❖❖

مدخل: الجزائر عند الشعراء العرب

إن المغايرة التي حدثت في الشعر العربي الحديث والمعاصر ليست معارضة للشعر العربي القديم- وإن كانت النهضة الشعرية في حقيقتها قامت على المعارضة الشعرية . وإنما هي تطوير وتثوير وتطويع للعمود الشعري العربي؛ حيث استفاد الشاعر العربي الحديث من الأشكال الشعرية السابقة (الأراجيز، الموشحات، تنوع القوافي ...) في بناء الشكل الشعري الجديد المواكب للتطورات الحاصلة فكريا وتقنيا.

ومن الأشياء المتميزة في بنية النص الشعري العربي الحديث والمعاصر، تعدد الأمكنة الشعرية وانفتاح الشاعر على أمكنة قريبة أو بعيدة، ولد فيها أو عاش بها أو زارها أو حتى سمع بها أو عنها (فالأذن تعشق قبل العين أحيانا) وأصبح المكان لمن يبدعه لا لمن يقيم فيه ويملكه .

فمع إعراض الشعراء عن الأطلال، برزت أمكنة أخرى تشبث بها الشعراء، لأنها أماكن بديلة، وتجلى ذلك في شعر الوطن، الذي لم يكن موجودا بهذا المفهوم من ذي قبل، حيث أضحى المكان مفردا بصيغة الجمع، وأصبح هو الذي يهيج الأشواق لما فيه من ذكريات، فكثُر عند الشعراء ذكر الأوطان ؛ لأن الوطن هو الهوية والانتماء والقضية وكلما تعلق وارتبط به الشاعر، كلما تحققت إنسانيته وكَمُلت مثله العليا لأنه " المكان الأول الذي يتجذر في الذات الإنسانية، هو البؤرة المركزية التي تستقطب تفاصيل الحياة الشاملة والنواة الخفية التي تتمحور حولها التجربة الشعرية " [1]

وقد امتزج ذكر الوطن بالحديث عما يعانيه من ظلم وتعسف واستدمار وفقد وضياع، كما ارتبط ذكره بالدعوة إلى النهوض لتخليصه من كل القيود، لأن الشاعر آمن به خلاصا وأضحى حبه عنده شريعة، فكان لزاما عليه أن يتحدى ويسعى لتحقيق الصبح الجميل.

وقد كان الشعراء أكثر تشبثا بالوطن وأملا في المستقبل من غيرهم لأنهم تجردوا من الأهواء والمنافع والمطامع، فكانوا صادقين مع أنفسهم ومع شعوبهم وتركوا قصائد تنمو حبا وارتباطا بالوطن .

بل إن الشاعر العربي الحديث- بغض النظر عن توجهه وانتمائه- في الكثير من المواقف الشعرية، لم تعد تحدّه الحدود الجغرافية الوهمية، التي وضعها الاستدمار الغربي،فأضحت هموم كل الدول همومه، فمصر مرتبطة ببغداد وبغداد مرتبطة بدمشق وهكذا دواليك ... فالروابط الدينية والإنسانية كانت أقوى من الروابط المكانية والجغرافية المحدودة، بل تحولت العديد من الأمكنة العربية في المشرق العربي ومغربه إلى رمز تاريخي يلهم الشعراء، مثل الأوراس- في الجزائر- الذي آمن به الشعراء العرب، فكتبوا العديد من النصوص الشعرية فيه، تفاوتت مستوياتها الفنية .

فالأوراس رمز الجزائر الشامخة وانطلاقة ثورتها الرائعة، وقد تميز الشاعر السوري سليمان العيسى، بالكتابة عن الجزائر وتوظيف رموز الثورة، ورمز الأوراس ،خاصة في ديوانه " ديوان الجزائر "إذ لا تخلو قصيدة من قصائد الديوان إلا وذكر فيها اسم الجزائر (صراحة أو رمزا) فيتحول المكان عند الشاعر سليمان العيسى من جغرافيا وتاريخ إلى بعد نفسي يملأ حياة الشاعر ويرسم خطاه ويبشره بالأفاق القادمة ما دام الشاعر قد آمن به وبثورة الجزائر المظفرة:

ستقولُ لا ترهقْ جناحيْك
لِتطيَر في حلم بجفنيْكا
النازحُ النائيُّ .. بكفيكا
لسنا حزازاتٍ على الأفُقِ
خيمًا على الطُّرقْ ...
لسْنَا .. تخطى ضَريحي .. انطلقي
إنا غدًا .. أنشودةُ حُره
تلد الروائعَ .. خصبةً ثره
إنا غدًا ..
آمنتُ بالأوراسِ
بالثورة [2]

فالشاعر سليمان العيسى أحب الجزائر وثورتها بعمق فتغنى بها في العديد من القصائد والمناسبات، في هذا الديوان أو ذاك، و وقف عندها بقطاره الأخضر مع ابنه "معن " فأضحت الجزائر عنده عنوانا للبطولة ورمزا للشموخ والكبرياء،و رمزا للعرب-من الشرق إلى

الغرب – جميعا لما حققته من بطولات وانتصارات ولما غيرته من معادلات محلية ودولية، وقيم ومفاهيم، فالطفل "معن" ابن الشاعر أو الشاعر نفسه يتعلم من تاريخ الجزائر :

يا ترابَ الواهبين الخالدين
يا جزائرْ
أدفِقي فينا نشيدًا عربيا
من دمِ الثورةِ ... ما زال طريًّا
نحنُ أطفالُك، يا أرضَ البشائرْ
ينبتُ الأطفال من بَرْق الملاحمْ
في ثراكِ الحُرِّ .. يا أمَّ الملاحِمْ
يا ترابَ المجدِ يا أرضَ البشائرْ
قِمَمُ الأوراسِ فيها قد وَجَدْنَا
و عليْها مُنْذُ أن ثارتْ وُلدنا
لم نزلْ نولَدُ جيلاً بعد جيلْ
عربيًّا يتحدَّى المستحيلْ
مَشْرِقَيًّا .. مَغْرِبيَا [3]

ولم تكن الجزائر هي البلد الوحيد مع سوريا . بلد الشاعر . هي التي ذكرها سليمان العيسى في شعره، بل كان قلبه مع كل ثورة عربية ومع كل دفقة أمل أنى كانت ؛ في مصر أو السودان أو اليمن، فكان بحق شاعر العروبة والعربية الذي ألغى الحدود المكانية والنفسية المصطنعة وحاول جبر ما انكسر، وهذه مهمة الشاعر الرؤيوي :

ماذا مِن الشهقةِ الحمراءِ أختزنُ ؟
أمشي وتنأيْن يا صنعاءُ، يا عدنُ
تَقَصَّفَ العمرُ في جفني وفي شفتي
و ما تزالُ وراءَ الدمعةِ اليمنُ [4]

كما شكلت مدينة وهران الجزائرية بؤرة التوتر للشاعر العربي محمد عبد المنعم خفاجي الذي جذبته المدينة وسحرته بجمالها في إحدى زياراته ،فأبرز في نصه" وهران "[5] تفاعله غير المحدود مع مدينة عربية لها من التاريخ ما لها ،وأبرز في القصيدة تلاشي الحدود وانجذابه لكل ما هو جميل ورائع في أي مكان عربي:

في خاطري أبدًا وفي وجداني وهرانُ يا حوريةَ الشـطآنِ
المجدُ فوق جبينك الوضاءِ يُشـ ـرِق سِحْرهُ متلألئَ العقيانِ
في ثغرِكِ الهيْمان سحرٌ مزهرٌ وعلى شفاهكِ للجلالِ أغانيِ
يا فتنةَ الآبادِ جئتك خاشعًا أدعُو لعزِك كي يُضيء زمانيِ

وهرانُ يا مهدَ الخيالِ مصورًا في لوحةٍ من ريشةِ الفَنـَّانِ
أكبرتُ قدْرك عن بلاغةِ قائلٍ وعن الثناءِ وطارفِ الألْحَانِ
يا غيدَ آسادٍ تحيةَ وامقٍ لملاعبِ الأبطالِ والفرسانِ [6]

وفي النص إشارتان هامتان لدارس المكان، الأولى في قوله " في خاطري أبدا.."وهو يثبت هنا أن وهران المكان سيطرت على وجدانه وأصبحت تقف كخلفية للعملية الشعورية/ الإبداعية.و الثانية في قوله " أكبرت قدرك.." فكأنه يجعل بلاغة المكان الصامتة فوق بلاغة القصيدة الصاخبة، فيرتفع بالمكان كمكوّن نصّي على جميع المكونات البلاغية الأخرى.

كما كانت مدينة عنابة عند الشاعر محمود حامد مختصر التفاصيل، والملجأ الذي يتوق إليه،والحب الذي يحن إلى تجسيده؛تحولت عنابة عنده إلى كائن حي يبادله المشاعر وإلى عنوان،بنية ونصا:

أناديها..
فلا تصحُو على صوتِي
كأن الحُلمَ يأخذها بعيدا
حين تهمسُ لي:
متى تأتي!!؟
متى وأنا الذي ضيعتُ
في أهدابِها وقتي
أسافرُ في ضفائرهَا وعينيها
و أختصرُ التفاصيلا [7]

ويشكل شعراء فلسطين علامة مميزة في مسيرة الشعر العربي الحديث والمعاصر في اهتمامهم بالمكان العربي العام، دون إغفال للمكان الفلسطيني المفقود، وذلك بحكم تغربهم وتشتتهم في الكثير من البلدان العربية والغربية ،و بحثهم الدائب عن الانتماء لمكان ما علّهم يجدون البديل الضائع في تلك الأمكنة ،فالمكان ـ فلسطين ـ هو فضاء الشاعر، ولا يمكن الاستغناء عنه لأنه الحياة كلها، ففلسطين هي النهر والماء الذي يحيا به وفيه.

وقد كان المكان علامة متميزة في مسيرة الشعر العربي الحديث والمعاصر، وأصبح له دوره في التشكيل الجمالي للنصوص، لأن له شعرية ما قبلية لا دخل للشعراء فيها ،و شعرية ما بعدية يساهم الشعراء في إيجادها وترسيخها .

ومن الشعراء العرب المعاصرين الذين هيمن المكان على نصوصهم، الشاعر عزالدين المناصرة الذي دار معظم شعره حول الأمكنة وبدونها لا يستطيع الكتابة كما أشار إلى ذلك في

كتابه جمرة النص الشعري عند حديثه عن خلفيات الكنعنة الشعرية[8]. والذي سيكون مدار هذه الدراسة.

شعر المكان إذن، أدب رؤية بصرية ورؤيا فكرية ؛ أدب رؤية لأنه مستمد من الواقع والمعلوم، وأغلب الأمكنة التي يتحدث عنها الشعراء تكون مشاهدة برؤية العين. أدب رؤيا لأن الشاعر يدمج بين دواخله وأحاسيسه والمكان،و يحاول أن يحمله رسالة ما ويجعله منفذا له وللتاريخ وللجيل الجديد حتى يحافظ على الكيان الجماعي والذاتي للأمة وكيانه هو ،لأنّه كلما بقي المكان بقي الشاعر، فالشاعر في علاقة تلازمية مع المكان وهذه الدراسة حول شعرية المكان عند الشاعر عزالدين المناصرة وبالأخص المكان الجزائري، مقاربة لهذا العنصر المهم في شعره ومحاولة لإبراز المغايرة وجمالياته[9] من خلال توظيفه في النص الشعري .

المكان في شعر عزالدين المناصر

برز البعد المكاني جليا عند الكثير من الشعراء العرب المعاصرين، إذ حضرت أمكنة جغرافية كثيرة في المتن الشعري العربي ،بصور مختلفة تفاوتت من شاعر إلى آخر، بل حتى عند الشاعر نفسه، وقد فرضتها المرحلة التاريخية التي عاشها الشاعر العربي وفي ضوء الإطار الفكري والثقافي الذي تحرك فيه.

وقد كان المكان الجغرافي مدعاة لاستحضار الماضي والتأمل في الحاضر،رجع إليه الشاعر العربي وذلك من أجل التعبير عن الذات والمقارنة بين ما كان وما هو كائن.

وقد تميز استخدام المكان في نصوص الكثير من الشعراء العرب –في أغلبه – بالذكر الجغرافي لأسماء الأمكنة دون التفاعل معها، أو تحويلها إلى رموز وأقنعة شعرية، في معظم الأحيان، وقد رصد عز الدين المناصرة ـ محور هذه الدراسة ثلاث طرق للتعامل مع المكان :

" 1 . الطريقة الإلصاقية (ذكر أسماء الأمكنة)
2 . الطريقة السياحية (التعامل الخارجي مع مظهر المكان)
3. الطريقة النقدية (الانصهار في دم النص وإعطائه صفات جديدة)" [10]

وعلى الناقد والباحث عن جماليات النص الشعري أن يكشف طريقة توظيف الشاعر للمكان في النص الشعري،و هل تمّ ذلك بطريقة شعرية ،أم تمّ ذكر المكان كمادة خام في النص الشعري؟، لأن شعرية النص لا تقاس بمدى ورود الأمكنة في النص وذكر هندستها، وتواريخها،وإنما تقاس بطريقة التعامل معها داخل النص، وتوظيفه في البنية العامة له

بوعي فني متميز، يعيد صياغة الأشياء والأمكنة وترتيبها ترتيبا محكما إن على المستوى النصي أو على المستوى النفسي .

وقبل الإشارة إلى المكان الجزائري في شعر المناصرة نشير أولا للمكان بصفة عامة في شعره، إذ تنوع وتعدد، وإذا أردنا التحديد الدقيق لتوظيف المكان في النص الشعري عند المناصرة،وجدنا أنه كان شموليا في نظرته للمكان بغض النظر عن الأهداف التي يتوخاها من توظيفه له، وعن الدلالات والقيم التي يحملها كل عنصر مكاني في النص، وقد كان المكان الفلسطيني في المرتبة الأولى ثم المكان العربي في مرتبة ثانية، والمكان الغربي في مرتبة ثالثة، وهي أماكن زارهاحقيقة الشاعر المناصرة، وكتب فيها مشاركة منه لهموم الإنسان في ذلك المكان، أو إبراز لهمه المتجلي في ذلك المكان، محملا إياها القيم التي يتوخاها.

وقد كتب الشاعر عزالدين المناصرة هذه النصوص المرتبطة بالمكان عبر فترات زمنية متباينة تبعا للأحداث والملمات وتبعا لاستجابته التي اختلفت من فترة إلى أخرى. وهذا التنوع والتعدد بغض النظر عن وظيفته وإضافاته الجمالية أعطى النص الشعري عند المناصرة دما جديدا ورافدا آخر للكتابة الشعرية.

لقد هيمن الفضاء على النص الشعري عند المناصرة وهذا دليل على الارتباط بالذات العربية أولا وبالفضاء الشخصي ثانيا.

وهذا التعدد دليل على غنى النصوص وتنوع المواضيع التي طرحت فيها، أو القضايا التي أثيرت من خلالها، وهذا الأمر تكرر في عناوين القصائد المكانية في الدواوين المكانية، أو في غيرها من الدواوين التي اشتملت على قصائد مكانية، والجدول التالي يبرز هذه العناوين المكانية للقصائد الشعرية لعز الدين المناصرة بما فيها الدواوين التي تحمل عناوين مكانية:

عنوان الديوان وسنة الطبع	عناوين القصائد المكانية
ياعنب الخليل -1968-	زرقاء اليمامة،وداع غرناطة،المقهى الرمادي، جفرا في سهل مجدو،ياعنب الخليل، بين الصفا والمروة، كنيسة القيامة،قراءة أولية لطريق العين، مقهى ريش، مطار قلنديا، خان الخليلي.
الخروج من البحر الميت-1969-	قاع العالم، الخروج من البحر الميت، البلاد طلبت أهلها،جنازة مقهى، الأرض تندهنا، طريق الشام.
مذكرات البحر الميت-1969-	مذكرات البحر الميت،لي حارة في القاهرة، وهل بقيت في المدينة حدائق أيها السيد،غافلتك وشربت كأس الخليل،سجلات البحر الميت،أعالي كنعانيا.
قمر جرش كان حزينا-1974-	قمر جرش كان حزينا، طريق البنات، دادا ترقص على ضفة النهر،تقبلالتعازي في أي منفى،قولوا لمقبرة الشهداءألايكفيك.
بالأخضر كفناه- -1976	أماكن،صفصاف الدير،امرؤالقيسيصل فجأة إلى قانا الخليل.
جفرا-1981-	بودابست،في مدينة تدعى سنتياغو.
كنعانياذا- -1983	صخور آندروميدا.
حيزية عاشقة من رذاد الواحات-1990-	روسيكادا،مدينة تدور حول نفسها،مكتب، جنازة البحر الميت،مريمات بيت لحم،فندق،مطر الخناجر والحقول،حصار قرطاج.
رعويات كنعانية- -1992	غابة قلبي،البحر المتدارك،وقال رحمه الله في وصف البحر الميت،دار عمتي جليلة،في كريت حيث أهلي،رخويات طنجة،قبر في لندن.
لا أثق بطائر الوقواق-2000-	بعد البحيرة، مطعم متوحش، عاصفة عصافير تلمسانية.

فمما سبق –الجدول–، يتضح لنا أن المكان –بشتى أنواعه وأنماطه– ،قد هيمن على المتن الشعري لعزالدين المناصرة على المشتوى الشكلى وعلى المستوى النصي،على المستوى العام–عناوين الدواويين: ياعنب الخليل، الخروج من البحر الميت، مذكرات البحر الميت، قمر جرش كان حزينا ،حيزية عاشقة من رذاد الواحات، أو على المستوى الخاص ـ عناوين القصائد ـ من خلال سيطرة العنونة المكانية، فالعناوين العامة أو الفرعية،عتبات مضيئة، ووظيفتها في " أن يؤشر كل واحد منها إلى دلالة أو دلالات معنية يحملها الجزء الذي يحدده من النص مع ارتباطها بشكل عام بدلالة العنوان الرئيسي."[11] أو بدلالة عنوان الديوان الكلي، لكن في بعض الأحيان، لا نجد ذلك الارتباط بين العنوان والنص، أو بين عنوان الديوان وعناوين قصائده،لأنها لا تمثل حالة نفسية واحدة،و كتبت في سياقات مختلفة، إضافة إلى أن بعض عناوين النصوص الشعرية لا تتقاطع مع محتواها، ولأنه من المستحيل تناول بنية العنوان في المتن الشعري عند الشاعر عزالدين المناصرة في هذا العمل، اكتفينا بالعناوين التي ارتبطت بالمكان الجزائري،سواء أكانت بينها وبين النصوص الشعرية علائق أو لم تكن.

فالعنوان بقدر ما يثير القارئ ويعطيه دلالات وشحنات ،باعتباره العلامة اللغوية الأولى للنص، بقدر ما يسعى لمراوغته.وإصرار الشاعر على تسمية النص وعنونته بأسماء أماكن أو مدن، هو محاولة منه لربط نصه بالتاريخي والاجتماعي، واعتقادا منه أنه الدال الأولي الذي يحيل إلى دلالات أخرى، إن تمّ تمثله حقيقة في النص الشعري، فكأن النص يبدأ سيرورة إنتاج المعنى قبل الدخول في أعطافه. فالعنوان المكاني هو عتبة تحمل الوالج لاعطاف النص، حمولةً دلالية ابتدائية،ثم إن باقي الدلالة يصبح قابلا للتطعيم في كل لحظة، وهذا ما يزيد النص الشعري ثراءً.

فدلالات العناوين تعددت ما بين إبراز الجمال الطبيعي ،و الجلال التاريخي ،أو الفقد والحزن على ضياعه ،و الذكر العادي الذي لا يتجاوز اللفظ اللغوي دون تمثل المكان حقيقة... ولكن المعنى الصحيح لدلالة العنوان، لا يمكن الوصول إليه إلا بربط العنوان بالسياق النصي، لأن فصلها عن النص يسيء إلى النص بحد ذاته، فبعض الأمكنة يشترك فيها الشعراء في العنونة لكن دلالاتها تختلف من نص إلى نص، ومن سياق إلى سياق، ولا يمكن تلقي النص الشعري مفصولا عن عنوانه، لأن العنوان هو الذي يحدد هوية النص. ولذا كانت العناية بتشكيله ووضعه مهمة. بل إن الكثير من الأعمال الشعرية قد لا نطلع عليها ولا نتحصل عليها لكننا نحفظ عناوينها ،و قد نقرأ القصيدة ولا يبقى في الذاكرة إلا عنوانها ...

وسواء أكان العنوان كليا خاصا بالديوان الشعري، أم جزئيا خاصا بالقصائد الشعرية، فهو عتبة لغوية مضيئة مع عتبات أخريات،لغوية وغير لغوية، تتحرك بموازاة النص الشعري الرئيس، بل إن العنوان " من خلال طبيعته المرجعية والإحالية يتضمن غالبا أبعادا

تناصية، فهو دال إشاري، وإحالي يومئ إلى تداخل النصوص وارتباطها ببعض عبر المحاورة والاستلهام، ويحدد بالتالي نوع القراءة المناسبة له، ويعلن كذلك عن قصدية المنتج أو المبدع وأهدافه الإيديولوجية والفنية، إنه إحالة تناصية ،و توضيح لما غمض من علامات، فهو إذن النواة المتحركة التي خاط المؤلف عليها نسيج النص"[12] وهو الذي يبرز الإحساس الداخلي

المتجذر في الشاعر عن طريق لغة النص الشعري ،وهو السؤال القلق الذي تحاول القصيدة الإجابة عنه.

الجزائر في شعر عزالدين المناصرة

لقد ارتبط العديد من الشعراء العرب بأمكنة جزائرية معينة، هي في الأصل، الأمكنة التي زاروها أو ارتبطوا بها مهنيا..، فمارس المكان سلطته عليهم مرة، ومارسوا سلطتهم على المكان مرات عديدة، وجعلوه يدخل في البناء العام للنص، وربطوا بين إيقاع النص وإيقاع المكان، مضمنين النص الشعري بالمواقع الجغرافية الجزائرية.و من هؤلاء الشعراء العرب المتميزين الذين قضوا فترة زمنية ليست بالقصيرة في الجزائر الشاعر العربي عزالدين المناصرة، الذي وشح ديوانه الثامن[13]"حيزية عاشقة من رذاد الواحات" بعنوان جزائري، من خلال الرمز الشعبي "حيزية" وقصتها المعروفة في الجزائر، إذ استثمر الشاعر عزالدين المناصرة هذه الحكاية والواقعة بجميع ظلالها ووظفها في نصه الشعري"حيزية" وجعلها أيضا عنوانا لديوانه الثامن، الذي تضمن أيضا قصائد متعلقة بالمكان الجزائري وهي: "مدينة تدور حول نفسها" والمقصود بها مدية قسنطينة التي اشتغل بجامعتها مدة من الزمن، و"روسيكاد" الاسم القديم لمدينة سكيكدة الساحلية، والقريبة جغرافيا من قسنطينة.

أما ديوانه العاشر والأخير في المجموعة الكاملة " لا أثق بطائر الوقواق" فتضمن نصا شعريا آخر عن المكان الجزائري وهو نص" عاصفة عصافير تلمسانية" وتلمسان هي المدينة الجزائرية الثانية–في الغرب الجزائري– التي درس الشاعر عزالدين المناصرة بجامعتها أيضا لفترة من الزمن قبل مغادرته الجزائر إلى المملكة الأردنية.

و على هذا فالمحصلة هي أربعة نصوص شعرية – عاصفة عصافير تلمسانية، مدينة تدور حول نفسها، حيزية عاشقة من رذاذ الواحات،روسيكادا–،حول مدن جزائرية كثيرة: بسكرة، قسنطينة، سكيكدة، سطيف، القل، جيجل، جرجرة، أولاد جلال، الجزائر العاصمة،تلمسان.. تداخلت فيما بينها، استدعاها السياق العام النصي، على الرغم من أن النص لم يخصص لها.

و سأكتفي في هذه الدراسة بالإشارة إلى نص شعري واحد فقط وهو نص " حيزية عاشقة من رذاد الواحات" الذي كان عنوانا لديوانه الثامن.

حيزية عاشقة من رذاد الواحات-الديوان والقصيدة-

يشكل النص الشعري "حيزية عاشقة من رذاذ الواحات" والذي هو في الوقت نفسه عنوان الديوان، العلامة المحورية، لما تشكله "حيزية " المرأة الجزائرية الرمز، التي ماتت من أجل من تحب، من ذاكرة وتاريخ، وشيوع حكايتها في ربوع الجزائر ،و التي تذكرنا بقصص المحبين التي لم تكتمل حكايتها ولم تكلل بالزواج، وقد استثمر شاعرنا هذا الرمز الجزائري ووظفه في نصه مبتدئا بالفعل المضارع "أحسد" والذي يحمل دلالات التجدد والذي تكرر أكثر من سبع مرات في المقطع الأول:

أحسد الواحة الدموية هذا المساء
أحسد الأصدقاء
أحسد المتفرج والطاولات العتاق الإماء
الأكف التي صفقت راعفة
القوارير أحسدها
والخلاخيل ذاهبة آيبة
أحسد العاصفة
في حنايا الفضاء
أحسد الخمر مناسبة، وعراجينها في ارتخاء
وابن قيطون ،أحسده عاشقا طاف في زرعها
و(سطيف): حقول الشعير،الأعالي،
ينابيعها
أحسد المصحف الصدفي الذي لامسته أصابعها
(سيدي خالدا): عربا وخياما ونخلا: هوى[14]

فالشاعر يتمنى أن يعيش القصة من جديد، وهو يعيد صيغتها وحكايتها شعريا بطريقة فصيحة ـ بطريقة مخالفة للطريقة الأولى التي دونت بها وهي اللهجة المحلية، مذكرا القارئ بأطراف القصة من خلال ذكره لـ"سيدي خالد "موطن حيزية، و"سطيف" المكان الذي ارتحل إليه أهل حيزية هربا من حر الهجير وحر الحب الملتهب في قلبها، علها تنسى، وكذا "ابن قيطون" الشاعر الشعبي الجزائري الذي كتب القصة الشعرية ورواها وخلدها، وعرفت باسمه ولولاه لما عرفنا حيزية.

وقد أعاد الشاعر صياغة القصة بطريقة شعرية ،محدثا الخلخلة في البنية العامة للنص السابق، مثلما أحدث خلخالها الصدمة والفاجعة في قلب محبها،ونقل حيزية من عمق الصحراء الجزائرية ـ بسكرة ـ إلى الساحل الجزائري–تلمسان–واصفا آيها بصفات جميلة: جمرة البدو، حفلة في تلمسان أنتِ، موشحة بأغاني مساء الخميس، قطعة من سماء، نقطة من بياض

مساي، نخلة في أعالي الجبال...ليبرز الصورة البهية لحيزية، التي تمثلها إمراة متعددة الجمال والأوجه البديعة، وقد نقلها الشاعر عزالدين المناصرة من الإطار المكاني الأول، إلى أطر مكانية جزائرية متنوعة، للدلالة على شيوع القصة في ربوع الجزائر كلها، وللدلالة أيضا على إرتباط قصة حيزية بتاريخ الجزائر المتنوع، وقد كان المناصرة شاهدا على بعض أحداث تاريخ الجزائر المعاصرة، ومستلها لأحداثها السابقة، ولذلك فلا غرو أن يعيد توظيف حيزية،و يعطيها هذه المكانة الشعرية، لأنها فعلا تستحقها، وقد أصبحت عنوانا للجزائر، ومن الواجب علينا أن نعرف بقصتها ونحكيها لكل العرب، وقد قام بهذا الأمر مشكورا شاعرنا المناصرة :

جمرة البدو أنت، فمن أين جئتِ ،
تلوبين مختالة في قميص
موجز ورهيف أساي
حفلة في تلمسان ،أنتِ
موشحة بأغاني مساء الخميس
موجز ورهيف أساي
قطعة من سماء
أرجوانية علقت ليلة المجزرة
بجناح على الثلج في جرجرة
موجز ورهيف أساي
نقطة من بياض مساي
نخلة في أعالي الجبال تطل على العاصمة.[15]

حتى تبقى القصة محفوظة في الذاكرة ولا يلحقها التشويه ،و التحوير،و لا تبقى تدرس في الجامعة الجزائرية، عبر مقياس الأدب الشعبي فقط، ثم سرعان ما تمحي من الذاكرة، بفعل اختصارها أو تقديمها بطريقة غير علمية، أو غير فنية، ولذلك فالشاعر يصر إما إصرار على إعادة القصة والتأكيد عليها، بل إن الشاعر يرتقى بحيزية إلى مدارج عليا ويجعلها وردة جميلة ـ نرجسة. بل يراهن ويقلب الحكاية من أنها لم تعشق أحدا ،و هو بذلك يصدم القارئ الجزائري بفعل هذه المراهنة وهذا القلب، وعلى الرغم من جواز ذلك شعريا، لأن خيال الشاعر بإمكانه أن يغير ويحور في الأصل، ليبني المتن الشعري الجديد الخاص به، وفق رؤيته وكذا هواها، كان من الأفيد أن يذيل الشاعر عزالدين المناصرة النص بمختصر قصة حيزية، نتمنى أن يستدركه الشاعر في الطبعة القادمة:

قد يضيع كلام الرواة سدى
بعد تدجينه في المقرر في الجامعات
أو إعادة إنتاجه باختصار
في اللجان التي نقحت كتب المدرسة

ربما لم تكن من دم، إنما نرجسة
سافرت حول مرآتها
وأراهن ما عشقت أحدا
وأراهن ما عشقتْ ذاتها
قرب واحات (أولاد جلال)في الفلوات .
فليكن
فليكن[16]

ليختم الشاعر عزالدين المناصر نص "حيزية عاشقة من رذاد الواحات" بالفعل "أحسد" وهو الفعل الذي بدأ به النص، ليعود النص في الأخير إلى بدايته، وكأنه حلقة متصلة، شكل اسم حيزية فيه الحلقة الأساسيةو المحورية، وشكل بالمقابل الفعل "أحسد" الحلقة المكملة، وبذلك انبنى النص على اسم وفعل، وكون لنا جملة شعرية تحولت بفعل التراكم والتتابع إلى نص شعري جميل، أعاد الشاعر من خلاله القصة بطريقة شعرية مغايرة للنص الأصلي الأول، وقد كانت حيزية هي مفصل النص المتمظهر بفعل الحسد الذي ولد نصا شعريا متميزا، وكان الحسد شاملا وعاما لكل شيئ ارتبط بحيزية، فحتى الدود الذي أكل من جسمها محسود:

إنني أحسد الغابة الماطرة
أحسد النسر في جرجرة
أحسد التمر في بسكرة
أحسد الرمل والدود والعشب في المقبرة[17]

ف "حيزية "هي لؤلؤة العقد، والوردة والحب كله، وهي مختصر الزمان والمكان، تمسك بها الشاعر عزالدين المناصرة، ليرتقي بها، ويبرزها للقارئ العربي في أي مكان، واتخذها متكأ له في بناء نصه الشعري .

خاتمة:

لا نجد التميز والخروج من سيطرة سلطة المكان إلا عند زمرة من الشعراء الذين خرجوا عن الإطار الجغرافي الضيق، إلى إطار أوسع يحمل الكثير من الدلالات والرموز ؛ فالمكان هو الملاذ ،هو العودة للماضي الجميل ،هو امرأة موشحة بكل الصفات الجميلة، هو الذات المفقودة التي وجدها الشاعر فيه...و هذا التميز لم يكن إلا في بعض النصوص الشعرية التي انصهر كتابها في نصوصهم المكانية .

فالمكان عند الشاعر عزالدين المناصرة، علامة محورية ومنه تتفرع علامات أخرى، وقد توزع المكان عنده بين الشرق والغرب، وهذا يحمل دلالات عديدة وهي:

أولا: انفتاح الشاعر على أمكنة عربية متعددة.
ثانيا: الانتماء المتعدد لكل مكان في العالم العربي.
ثالثا: تعدد أشكال المكان في بنية النص الشعري عندالمناصرة.
رابعا: تداخل المكان والنص والشاعر حيث يصبح المكان هو الشاعر في بنية لغوية.

والمكان الجزائري عند المناصرة من حيث الجغرافيا ينقسم إلى :أماكن ساحلية، وأماكن صحراوية، وأماكن داخلية، وهي مدن زارها الشاعر عزالدين المناصرة، أو اشتغل بها، و كتب نصوصا شعرية فيها، وهي تضاف للأمكنة العربية الأخرى التي وظفها في شعره وهذا يثبت أن معظم شعره يتمحور حول الأمكنة وبدونها لا يستطيع الكتابة. وتركيزنا على نص شعري واحد فرضته طبيعة الدراسة، قد تتاح لنا فرصة أخرى للإشتغال على المتن الشعري لعزالدين المناصرة لنبرز تمظهر المكان الجزائري في شعره بشكل مفصل.

الإحالات

1- إبراهيم رماني: المدينة في الشعر العربي " الجزائر نموذجا 1925 - 1962 ". الهيئة العامة للكتاب , مصر , ط 01 , 1997، ص 205 .
2 - سليمان العيسى: ديوان الجزائر. المركز الوطني لتوثيق الصحافة ،الجـزائر، ط01، 1993، ص 107.
3 - المصدر السابق. ص 107.
4- المصدر نفسه. ص 107.
5- نشرت جريدة كواليس الجزائرية القصيدة في ذكرى الاحتفالات الذهبية لتأسيس الباهية وهران في سنة 2002.
6- عبد المنعم خفاجي : وهران. جريدة كواليس، 2002/01/06، ع 140، ص15.
7- محمود حامد: مسافة وردة لا تكفي. منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، ط01، 2001،ص 49.
8- لمزيد من التفصيل راجع كتاب عزالدين المناصرة : جمرة النص الشعري " مقاربات في الشعر والشعراء والحداثة والفاعلية " دار مجدلاوي، الأردن، ط01، 2006، الفصل الثامن المعنون بـ :شعرية الأمكنة : النواة الخفية من الصفحة 247إلى الصفحة 302.
9- من أبرز الكتب التي تناولت الموضوع : جمالية المكان لغاستون باشلار الذي ترجمه الروائي غالب هلسا في بداية الثمانينيات ، وقد ولد باشلار في 27 جوان 1884 في بلدة صغيرة Bar-sur-Aube بمقاطعة la champagne بفرنسا، نال الدكتوراه في الفلسفة سنة 1927، درس بجامعة Dijonثم بجامعة السربون وشغل منصب مدير معهد تاريخ العلوم، انتخب عضوا في أكاديمية العلوم سنة 1955، توفي في باريس في 16 أكتوبر 1962.
10- عز الدين المناصرة : شهادة في شعرية الأمكنة. مجلة التبيين، الجاحظية، ع 01 ،شتاء 1990، ص 37.
11- يحي الشيخ صالح : قراءة في الفضاء الطباعي للنص الشعري الحداثي " الأهمية والجدوى"مجلة الآداب، جامعة قسنطينةع07 .ص 55.

12- بلقاسم دفة : علم السيمياء والعنوان في النص الأدبي .محاضرات الملتقى الوطني الأول : السيمياء والنص الأدبي جامعة بسكرة . نوفمبر 2000.ص 43.
13- حسب ترتيبه في الأعمال الشعرية الكاملة التي صدرت سنة 2006 عن دار مجدلاوي، الأردن.
14- عزالدين المناصرة : الأعمال الشعرية الكاملة ج02.دار مجدلاوي، الأردن، ط 01، 2006.صص222.
15 - المصدر السابق ص 228-229
16 - المصدر السابق ص233
17- المصدر السابق ص234